

الفصل الحادى والثلاثون

رہط الشورى

« أعطى موثقاً لتزثرن الحق ، ولا تتبع الهوى
ولا تنحصر ذا رحم ، ولا تألو الأمة »
على بن أبى طالب

دفن عمر ، وفرغ الناس لأمر دينيهم ، فراحوا يتساملون عمن يكون
خليفة بعده ، وسرى فى يثرب قلق ، ورهبة ، ترى ما يفعل من حصرت
الخلافة فيهم ؛ وأشفق المشفقون على المسلمين أن ينشقوا طوائف وشيعاً ،
وأن يدب الخلاف بينهم ولما يستقر الإسلام بعد فى الأوصار التى
فتحوها ، وراح المخاضون يدعون الله أن يمنهم فتنه الدنيا .
وأقبل سعد ، وكان شارد الفكر ، يفكر فى أمر الخلافة ، وراح
يفكر فى منافسيه ، فرأى براجم عقله أن هناك من هو أحق بها منه ،
وأيقن أنه لو تخلى وتنازل عن حقه لحصر الخلاف فى نطاق ضيق ،
ولجنب المسلمين الانشقاق والتشاحن ، فراحت فكرة التنازل تراوده ،
وتحمل فكره ، وبلغ سعد حجرة عائشة فدخلها ينتظر أهل الشورى ،
وأقبل على وقابل عمه العباس ، والنفت إليه وقال :
— سعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن ، وعبد الرحمن صهر عثمان
لا يختلقون ، فيولياها عبد الرحمن عثمان ، أو يولياها عثمان عبد الرحمن ،
فلو كان الآخران معى لم ينفعانى ، بله إني لا أرجو إلا أحدهما ،
فقال له العباس :

— لم أدفعك في شيء إلا رجعت إلى مستأخرا بما أكره ، أشرت عليك عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسأله فيمن هذا الأمر فأبيت ، وأشرت عليك بعد وفاته أن تعاجل الأمر فأبيت ، وأشرت عليك حين سماك عمر في الشورى ألا تدخل معهم فأبيت ، احفظ عني واحدة ، كلما عرضوا عليك القوم فقل : لا ، إلا أن يولوك .

ودخل على حجرة عائشة ، ثم أقبل عثمان والزبير وعبد الرحمن ، ولم يقبل طلحة فقد كان غائبا ، ودخل ابن عمر ، وجاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة فجلسا بالباب ، فلبحهما سعد ، فخصبهما وأقامهما ، وقال لهما :

— تريدان أن تقولاً حضرنا وكنا في أهل الشورى .

ودار النقاش بين أهل الشورى ، وتنافس القوم ، وكثرت بينهم الأخذ والرد ، والجذب والشد ، وما كان كلامهم ليؤدي إلى نتيجة جاسمة ، فجعل كل منهم يذكر فضله وأحقية هذا الأمر دون الجميع ، ورأى عبد الرحمن ابن عوف أن الأيام الثلاثة التي حددها الخليفة الراحل لاختيار الخليفة الجديد ستنتقض قبل اختيار أمير المؤمنين لو استمر الأخذ والرد ، والجذب والشد ، فقال :

— أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم ؟

فلاذ الجميع بالسكون ، وهم سعد أن يخرج نفسه ، ولكنه أحجم فإنه لا يريد أن يتحمل مسؤولية تولية أفضلهم ، وساد السكون برهة ، فقال عبد الرحمن :

— أنا أنخلع منها .

فقال عثمان :

— أنا أول من رضى ، فأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول : « أمين في الأرض ، أمين في السماء » .

فقال الوبير :

— قد رضيتمنا .

وقال سعد :

— قد رضيتمنا .

وظل على ساكنه لا يلبس ، وتذكر قول العباس له : كلما عرضوا عليك القوم قل لا ؛ إلا أن يولوك ، وهم أن يرفض هذا ، ولكن صوت عبد الرحمن بن أذقه :

— ما تقول يا أبا الحسن ؟

فقال علي :

— أعطني موثماً لتؤثرن الحق ، ولا تتبع الهوى ، ولا تخص ذا رحم ، ولا تألو الأمة .

فقال عبد الرحمن :

— أعطوني موثقتكم على أن تكونوا معي على من يدل وغيره ، وأن ترضوا من اخترت لكم على ميثاق الله أن لا أخص ذا رحم لرحمه ، ولا آلو المسلمين .

فأخذ منهم ميثاقاً وأعطاهم مثله : وانصرف الجميع وقد ترك الأمر بين يدي عبد الرحمن بن عوف .

انطلق عبد الرحمن حتى أتى علياً على انفراد ؛ فقال له :

— إنك تقول إنني أحق من حضر بالأمر القرايتك ؛ وسابقتك بحسن أثرك في الدين ؛ ولم تبع ، ولكن أرايت لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضر ؛ من كنت ترى من هؤلاء الرهيل أحق بالأمر ؟
— عثمان .

وانصرف من عند علي وانطلق إلى عثمان وخللا به وقتاً له .

— تقول شيخ من بني عبد مناف ؛ وصهر رسول الله صلى الله عليه

وسلم، وابن عمه، في سابقة وفضل ولم تبعده، فلم يصرف هذا الأمر عنى؟
ولكن لو لم تحضر فأى هؤلاء الرهط تراه أحق به؟
— على .

وانصرف من عند على وقابل سعداً وحادثه ثم تركه، وانطلق إلى
الزبير؛ وقابل على سعداً وكان معه الحسين فقال لسعد :
— اتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيباً ،
أسألك برحم ابني هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبرحم عمي .
حزرة منك ألا تكون لعبد الرحمن لعثمان ظهيراً على . فأنى أدلى بما
لا يدلى به عثمان .

فأطرق سعد ولم يحرج جواباً .

راح عبد الرحمن يدور على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشرف الناس ، يشاورهم ويسألهم
عن من ينتخبونه خليفة لهم ، وانقضت الأيام . ولم تبق إلا الليلة التى ينقضى
في صبيحتها الأجل . وبلغ الجهد من عبد الرحمن متناه . إنه لم يذق
كثير غمض ، فأرسل في طلب الزبير وسعد ، فوافاه الزبير في المسجد .
فسأله عبد الرحمن للمرة الأخيرة ، فقال الزبير :

— نصيبي لعلى .

وأقبل سعد في سكون الليل . والناس نيام ، وقابل عبد الرحمن ،
وأخذوا بأطراف الحديث ، فقال عبد الرحمن :
— أنا وأنت كلاله ، فاجعل نصيبك لى فأختار .

— إن اخترت نفسك فنعم ، وإن اخترت عثمان فعلى أحب الى .
أيها الرجل ، بايع نفسك وأرحنا : وارفع رءوسنا .
— يا أبا اسحاق إني قد خلعت نفسي منها على أن أختار لا يقوم
مقام أبى بكر وعمر أحد فيرضى الناس .

— فإني أخاف أن يكون الضعيف قد أدركك . فامض لرأيك . فقد عرفت عهد عمر .

أصبح الصباح ، وخرج الناس إلى المسجد زرافات زرافات ليروا ما قرع عليه رأى رهط الشورى . وصلى الناس الصبح ثم جمع عبد الرحمن رهط ، وأرسل إلى أمراء الأجداد . وتوافدت جموع الناس حتى التجمعت المسجد بأهله ، ووقف عبد الرحمن . فسكت الجميع كأن على رؤوسهم الطير . وأعاروه منهم ليدسمعوا ما ينطق به حكم القضاء . قال عبد الرحمن :

— أيها الناس ، إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بمصارهم ، وقد علموا من أميرهم .

فصاح أحدهم :

— إنا نراك لها أهلاً .

فقال عبد الرحمن :

— أشيروا على بغير هذا .

فقال عمار :

— إن أردت أن لا يختلف المسلمون فبايع علياً .

فصاح المقداد بن الأسود :

— صدق عمار ، إن بايعت علياً قلنا سمعنا وأطعنا .

فصاح ابن أبي سرح :

— إن أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان .

فصاح آخر مؤمناً على هذا القول :

— صدق ، إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا .

فثار عمار وشتم ابن أبي سرح وقال :

— متى كنت تنصح المسلمين .

وراح بنو هاشم يعددون مناقبهم ، وأخذ بنو أمية يذكرون فضيلتهم ،
وراح سعد بن قيس ما يحدث فرأى الفتنة تطل عليهم ، وتأهب لأن
تلشب أظفارها فيهم فتمزق ثوبهم ، وفرقهم شيعاً ، وصك أذنيه
صوت عمار وهو يصيح :

— أيها الناس إن الله عز وجل أكرمنا بنبيه ، وأعزنا بدينه ، فأني
تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم .

وبلغ سمعه قول رجل تعبار :

— لقد عدت طورك يا ابن ممية وما أنت وتأمين قريش لأنفسها ؟
فاقترب سعد بن عبد الرحمن وقال له :

— يا عبد الرحمن أفرغ قبل أن يفتتن الناس .

فأشار عبد الرحمن للناس ، فلاذوا بالصمت فقال :

— إني قد نظرت وشاورت فلا تجمعن أيها الرهط على أنفسكم سبيلاً ،
ودعا علياً فقال :

— عليك عهد الله وميثاقه لنعلمن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة
الخليفةين من بعده ؟

فسرى الأمل الدفء في صدور أنصار علي ، فعما قابلي ينادي به-
خليفة المسلمين ، وقال علي :

— أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علي وطاقي .

ودعا عبد الرحمن عثمان وقال له :

— عليك عهد الله وميثاقه لنعلمن بكتاب الله ، وسنة رسوله وسيرة

الخليفةين من بعده .

— نعم .

— إني أبايعك أميراً للمؤمنين .

— ١٩٩ —

فثار أنصار علي ، وأظهروا استيائهم من هذا القرار ، والتفت علي
إلى عبد الرحمن وقال :

— حيوته حبو دهر ، ليس هذا أول يوم تظاهرتهم فيه علينا ، فصبر
بجميل ، والله المستعان علي ما تصدرون .

الفصل الثاني والثلاثون

عثمان أمير المؤمنين

« ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً ، »
« قرآن كريم ، »

قال عبد الرحمن بن عوف لعثمان بن عفان :
— إني أبايعك أميراً للمؤمنين .

وسمع الناس مقالة عبد الرحمن فاجتمعوا إلى عثمان ، وراحوا يبايعونه ،
وتقدم سعد منه وبأيعه ، ثم تقدم الزبير ، وتلكأ علي ، وخشى عبد الرحمن
مغبة هذا التلكؤ ، فأسرع إلى علي قبل أن يندلع لهيب الفتنة وقال له :
— « ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله
فسيؤتيه أجراً عظيماً ، »

فراح علي يشق الناس ، حتى بلغ عثمان الجالس على الدرجة الثانية
من المنبر وهو يقول :
— خذعة وأياخذعة .

ثم تقدم منه وبأيعه ، فاطمأنت القلوب ، فلما يشق أحد عصا
المسلمين ، وبأيع الناس وانصرف عثمان والناس معه إلى بيت فاطمة ابنة
قيس ، وجلس علي وسعد وعبد الرحمن والزبير معه ، فقام المخيرة
خطيباً ، فقال : يا أبا محمد ، الحمد لله الذي وفقك ، والله ما كان
لها غير عثمان .

فقال عبد الرحمن :

— يا بن الدباغ ، ما أنت وذاك ، والله ما كنت أبايح أحداً إلا قلت
فيه هذه المقالة .

ونظر عثمان إلى المغيرة وأطرق ، وقد اعتزم في نفسه أمراً ، لقد
اعتزم عزله عن السكوفة وتولية سعد بدله .

جلس عثمان في المسجد ، وطلب من سعد أن يوافيه بعبيد الله بن عمر
النجبوس في داره ، فانطلق سعد ، وفي الطريق راحت الصور تمر في
بخيلته ، فرأى عمر والدم يتدفق من جراحه ، ثم رآه وهو يقضى ، ورأى
بعين خيالة ابنه عبيد الله وقد خرج من الدار بعد موت أبيه ، وقد
اشتعل على السيف لا يلوى على شيء ، ومرت بخياله صورة ذلك الذي
جاءه مسرعاً يخبره أن عبيد الله قد قتل الهرمران لأنه أعطى أبا لؤلؤة
الخنجر الذي قتل به عمر ، ثم جاءه آخر وأنبأه أن عبيد الله قد قتل
جفينة ظرّه ، وتذكر خروجه مسرعاً ليرى ما حدث ، فزأى عبيد الله
والسيف في يده ، وهو يصيح : والله لأقتل رجلاً من شرك في دم أبي ،
والناس تخشى الاقتراب منه ، فانقض عليه ، ونزع منه السيف ، ولكن
راح يقاوم ويشور ويتوعد ، فغذب شعره حتى أضجعه إلى الأرض ، ثم
اقتاده إلى داره وحبسه فيه . تذكر سعد كل ذلك وهو في طريقه إلى
الدار ، ولما بلغ الدار ، أخرج عبيد الله وجاء به عثمان ، فالتفت عثمان
إلى من عنده وقال :

— أشيروا على في هذا الذي فتن في الإسلام ما فتق .

فقال علي :

— أرى أن تقتله .

فقال بعض المهاجرين مستنكرين :

— قتل عمر أمس ، ويقتل ابنه اليوم ؟

وأدلى عمرو بن العاصى بدلوه فقال:

— يا أمير المؤمنين إن الله قد أعفانا أن يكون هذا الحدث كان ولك

على المسلمين ساعدان ، إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك .

فغناطاً عثمان رأسه قليلاً ، ثم رفعها وقال :

— إلى بابن الهرمزان .

لجىء بابن الهرمزان ، ولما مثل بين يدي عثمان قال له :

— يا بنى ، هذا قاتل أبيك ، وأنت أولى به منا ، فاذهب فاقتله .

فأخذ ابن الهرمزان عبيد الله وانطلق ، وخرج الناس خلفه ، وأخذ

بعض الناس يلتمسون من ابن الهرمزان العفو عنه ، فالتفت إلى

الناس وقال .

— إلى قتله ؟

— نعم .

— أفلكم أن تمنعوه ؟

— لا .

— إني أتركه لله وإلحكم .

وترك ابن الهرمزان عبيد الله ، وأطلق سراحه ، فهاجم الناس على ابن

الهرمزان والفرح يهزمهم ، واحتملوه على رؤوسهم وأكفهم ، وعادوا به

إلى منزله فريحته .

الفصل الثالث والثلاثون

ولاية سعد الكوفة

« أوصى الخليفة من بغداد أن يستعمل سعد
ابن أبي وقاص ، فاني لم أعزله عن سوء »
عمر بن الخطاب

استقر الأمر لعثمان ، فراح يفكر في أمر العمال ، فرأى أن يعزل
المخيرة عن الكوفة ، وأن يرسل سعدا فهو أعلم الناس بها وبأعمالها ،
فبعث إليه ، وأمره أن يتجهز للخروج إلى الكوفة ، لحمل أزواجه
وأولاده وعاد إلى قصر سعد .

انقضت سنة وسعد في الكوفة يقوم بشؤونها ، وكان على بيت المال
عبد الله بن مسعود ، وأحسن سعد في يوم من الأيام حاجة إلى المال ،
فانطلق إلى بيت المال وسأل ابن مسعود أن يقرضه ما يحتاج إليه ،
فأقرضه من بيت المال ، وممرت الأيام ولم يستطع سعد أن يسدد دينه ،
فجاءه ابن مسعود وسأله أن يدفع إلى بيت المال ما أخذت ، فاعتذر إليه
سعد وطلب منه أن يمهله قليلا ، ولكن ابن مسعود أصر على وجوب
السداد فورا ، فأخبره سعد أنه لا يملك ما يوفي الدين ، وأنه إذا خرج
عطاؤه سدد ما عليه .

ثم ينتظر ابن مسعود طويلا ، بل استعان بأناس وبعثهم إلى سعد
يطلبون منه سداد ما أخذ ، فاعتذر إليهم بعدم قدرته على السداد ، ولم
يكتف بذلك ، بل بعث إليه أناسا يطلبون منه استظهاره ، ولكن ابن

مسعود أبى ، وانتشر خبر دين سعد فى الكوفة ، فانقسم الناس فريقين ،
فريق مع سعد ، وفريق مع ابن مسعود ، وارتفع الجدل بين الفريقين ،
ونزع الشيطان بينهما وراح كل فريق يلوم الفريق الآخر ، فانتقلت
المسألة من دين ومطالبة إلى تحزب بين فريقين .

وفى يوم جلس سعد وابن أخيه هاشم بن عتبة وبعض نفر من
المسلمين ، وأقبل ابن مسعود ، فالتفت إلى سعد وقال :
— أدم المال الذى قبلك .

فرفع سعد نظره إليه وقد بان الغضب فى وجهه وقال :
— ما أراك إلا ستلقى شرا . هل أنت إلا ابن مسعود عبد بنى هذيل .
فثار غضب ابن مسعود فقال :

— أجل والله إني لابن مسعود ، وإنك لابن حمينة .
ورأى هاشم ارتفاع الجدل بينهما ، وخشى اندلاع لبيب المناقشة
الحادة التى يخاف عقباها ، فشاء أن يطفئها فقال :
— أجل والله ، إنكما لصاحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم
ينظر إليكما .

فخرج ابن مسعود ولحقه كان يعيد الكرة بين الفينة والفينة ، واستمر
التحزب بل ازداد على الأيام قوة ، ورأى أحد رسل عثمان ما عليه أهل
الكوفة من فرقة ، فعاد إلى عثمان وأنبأه كل شيء ، أنبأه نبأ الخلاف
الذى شجر بين سعد وابن مسعود ونبأ افتراق الناس وبعضهم يلوم بعضا ،
فغضب عثمان على كل من سعد وابن مسعود فأرسل إلى سعد أنه قد
عزله عن ولاية الكوفة ، واستعمل الوليد بن عتبة .

بلغ سعد أن عثمان قد عزله ، فراح يعد حوائجه للعودة إلى المدينة .
وفى ما هو يتجهز للعودة ، دخل ابنه عليه ، وسأله ما يفعل فقال :
— سنعود إلى المدينة :

— ولم ؟

— عزلنا عثمان .

فثار الابن ، وراح يردد : وكيف يفعل عثمان هذا ؟ ونحن الذين
جئنا به إلى الخلافة ، واستمر في التحدث عن فضائلهم ، فالتفت أبوه
إليه وقال :

— يا بني إياك والكبر ، وليكن فيما تستعين به على تركه عليك بالذى
فيه كنت ، والذى إليه تصير ، وكيف الكبر مع النطفة التى منها خلقت ،
والرحم التى منها قذفت ، والغذاء الذى به غذيت .

ونخرج سعد من الكوفة للمرة الأخيرة ، فلن يشاهدها بعد اليوم ،
ولن يعود إليها ، وانطلق إلى المدينة ليشاهد ثورة الأمصار عن كثب .

الفصل الرابع والثلاثون

ثورة الأمصار

« الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون
أنهم يحسنون صنعا »
قرآن كريم

عاد سعد إلى المدينة ، ومكث بها مدة ، وخالط أهله ، فوجد تغيرا
وتبدلا ، وجد الناس يتهامون ويتناقلون أخبار الأمصار ، ويوسعون
الأرض ذاعة ، فرأى محادثة أهل الرأي في ذلك ، فاجتمع بهلى وطلحة
والزبير ، فأخذوا يتذاكرون ما يخوض الناس فيه من حديث تدمر
الأمصار ، وتأهبهم للانقلاب على عثمان ، فجمعوا رأيهم على مفاتحة
عثمان في ذلك ، فانطلقوا إليه ، واجتمعوا به وقالوا له :

— يا أمير المؤمنين أيا تيك عن الناس الذي يأتينا ؟

— لا والله .

— فإننا قد أتاننا أن الناس في الأمصار مستأمنون من عملهم ،
ومستأمنون من سوء تصرفهم ، ولهم يستعدون للثورة عليك .

فأطرق عثمان برهة ثم رفع رأسه وقال :

— فأتتم شركائي وشهود المؤمنين ، فأشيروا على .

— نشير عليك أن تبعث رجالا ممن تثق بهم إلى الأمصار حتى

يرجعوا إليك بأخبارهم .

وأرسل عثمان الرجال وعادوا جميعا من الأمصار وقد قالوا :

— ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم ، الأمر
أمر المسلمين .

ولم يعد عمار بن ياسر الذى أرسل إلى مصر ، فحسب الناس أنه قد
اغتيال ، ولكن عماراً كان فى مصر قد اتصل بالثوار ، وكان يستمع إلى
شكاياتهم حتى اقتنع بها فانضم إليهم .

واستمرت الشائعات ترد إلى المدينة ، فرفعها أهل الشورى إلى
عثمان ، فكتب عثمان إلى الأمصار : أما بعد ، فإنى آخذ العمال بموافاتى
فى كل موسم ، وقد سلطت الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهى
عن المنكر ، فلا يرفع على شئ ، ولا على أحد من عمالى إلا أعطيته ،
وليس لى ولعيالى حق قبل الرعية إلا متروك لهم ، وقد رفع إلى أهل
المدينة أن أقواماً يشتمون وآخرون يضربون ، فيما من ضرب سرا ، وشتم
سرا ، من ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم ، فليأخذ بحقه حيث كان
منى أو من عمالى ، أو تصدقوا ، فإن الله يجزى المتصدقين ، ولم يكتب
عثمان بذلك ، بل بعث إلى عمال الأمصار ليوافوه ، وليسمع منهم
ما يستخط الناس ليعمل على إزالة أسباب شكواهم ، فوافاه العمال ،
فقال لهم :

— ويحكم ! ما هذه الشكاية وما هذه الإذاعة ؟ إني والله لخائف
أن تسكنوا مصدوقاً عليكم ، وما يعصب هذا إلا بى .
— ألم تبعث ؟ ألم ترجع إليك الخبر عن القوم ؟ ألم يرجعوا ولم
يشافهم أحد بشئ ؟ لا والله ما صدقوا ولا بروا .

واستمر الحديث بين عثمان وعماله ، ثم خرج العمال جميعاً وبقى
معاوية ، فأرسل عثمان إلى سعد وعلى والزبير وطالحة ، وقدم سعد
ودخل على أمير المؤمنين ، وانتظر حتى يتم عقد أهل الشورى ، فلما
التأم الجمع ، التفت معاوية إليهم وقال :

— أنتم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخيرته في الأمة ،
ورلاة أمر هذه الأمة ، لا يطمع في ذلك أحد غيركم ، اخترتم صاحبكم عن
غير غلبة ولا طمع ، وقد كبرت سنه ، وولى عمره ، ولو انتظرتهم به
ألهرم كان قريبا ، مع إنى أرجو أكرم على الله أن يبلغ به ذلك ، وقد
فشت قالة خفتها عليكم ، فما غبتم فيه من شيء فهذه يدي لكم به ، ولا
تطمعوا الناس في أمركم ، فوالله لأن طمعهوا في ذلك لارأيتم فيها أبدا
إلا إدارا .

فالتفت على إلى معاوية وقال له :

— وما لك وذلك ؟ وما أدراك ، لا أم لك .

فقال معاوية في هدوء :

— دع أمى مكانها ليست بشر أمهاتكم ، قد أسلمت وبايعت النبي صلى
الله عليه وسلم ، وأجبنى فيما أقول لك .
فقال عثمان :

— صدق ابن أخي ، إنى أخبركم عنى وعمى وليت ، إن صاحبي اللذين
كانا قبلى ظلما أنفسهما ، ومن كان منهما بسبيل احتسابا ، وإن رسول
الله صلى الله عليه وسلم كان يعطى قرابته ، وأنا فى رهط أهل عيلة وقلة
معاش ، فبسطت يدي فى شيء من ذلك لئال لمكان ما أقوم به غيه ،
ورأيت أن ذلك لى ، فإن رأيتم ذلك خطأ فردوه ، فأمرى لا سركم تبع .
فقال سعد :

— أعطيت مروان فردوه .

وقال الزبير :

— أعطيت عبد الله بن خالد فردوه .

فردهم عثمان برد ما أعطاهم ، فخرجوا من عنده راضين .
كانت أهل مصر أشياعهم من أهل الكوفة وأهل البصرة ،

وتواعدوا على اللقاء في المدينة ، فخرج أهل مصر إلى المدينة مدعين الحج ،
وخرج أهل الكوفة والبصرة ، وبالقرب من المدينة سارت الرسل
بين جماعات الشوار .

بلغ عثمان مسير الثول إلى المدينة ، وعلم أن المصريين قد نزلوا بذي
قار ، وكان عثمان يعلم منزلة علي في الناس ، فأرسل إليه وطلب منه أن
يخرج للقائهم وردهم ، وأرسل إلى عمار بن ياسر أن يخرج مع علي ، ولكن
عماراً أبى ، فأرسل عثمان إلى سعد وقال له :

— أرسلت إلى عمار أن يخرج مع علي فأبى ، ألا تأتبه فتكلمه أن
يخرج مع علي ؟

فخرج سعد وانطلق ودخل على عمار وسلم عليه ثم قال :

— يا أبا اليقظان ألا تخرج فيمن يخرج مع علي ، وهذا علي يخرج
فأخرج معه ، واردد هؤلاء القوم عن إمامك ، فإنني لا أحسب أنك لم
تركب مركباً هو خير لك منه .

— لا .

— أخرج يا عمار مع علي وكلم الناس لعلمهم يرجعون عن المدينة .

— والله لا أردم عنه أبداً .

وأيقن سعد ألا فائدة من طلب عون عمار فقد حاول أن يفنله بكل
وجه دون جدوى ، فعاد إلى عثمان وأخبره بقول عمار ، ولكن عثمان
لم يصدق قول سعد ، فأقسم له سعد أنه ينصحه ويقول له الحق .

وعاد علي إلى عثمان وأخبره أنه تمكن من إقناع أهل مصر ، وأنهم
قد عادوا إلى ديارهم ، ويرى هذا النبأ في المدينة فانتعشت ، وحسب
أهل يثرب أن الروبة قد مرت ، وما دار بخلداهم ، أنها تستجمل لتتخلع كل
سما يصادفها ، وتخلع كل ما يقف في طريقها .

انقضى اليوم يسلام ، وأقبل اليوم الثاني ، فجاء مروان عثمان وقال له :

— تكلم ، أعلم الناس أن أهل مصر قد رجعوا ، وأن ما بلغهم عن إمامهم كان باطلا ، فإن خطبتك تسير في البلاد ، قبل أن يتحاب الناس عليك من أمصارهم ، فيأتيك من لا تستطيع دفعه .

فأبى عثمان أن يخرج لينخطب ولكن مروان لم يزل به حتى خرج ، واعتلى المنبر وقال : « أما بعد ، إن هؤلاء القوم من أهل مصر كان بلغهم عن إمامهم أمر ، فلما تيقنوا أنه باطل ما بلغهم عنه رجعوا إلى بلادهم . وكان عمرو بن العاص في المسجد ، وكان عاملا على مصر وقد عزله عثمان فسأه أن تخدم نار الفتنة ، وشاء أن يحركها ويؤجج نارها ويحركها ، حتى يتدلع طيها ، فيثار لعزله ، فانتز الفرصة المواتية فاهتباها وصاح من ناحية المسجد :

— اتق الله يا عثمان فإنك قد ركبت نهائير وركبناها معك ، فتب إلى الله توب .

وهم عثمان أن يرد على عمرو ، ولكن صوتا آخر نادى من ناحية أخرى :

— تب إلى الله وأظهر التوبة يكف الناس عنك .

فرفع عثمان يديه مدا واستقبل القبلة فقال :

— اللهم إني أول تائب تاب إليه .

وعاد عثمان إلى داره ، وخرج عمرو بن العاص ليؤلب الناس عليه . وبينما أهل المدينة في دورهم هادئون ، إذ ارتفعت أصوات بالتكبير ، فارتجمت المدينة ، وخرج الناس يسألون عن الخبر ، وخرج سعد فعلم أن المصريين قد قتلوا راجعين بعد مسيرهم ، وأنهم حاصروا عثمان ، فانطلق إلى القوم يحادثهم ، فقالوا له :

— من كف يده فهو آمن .

وجاء على فأسرع سعد إلى الشرار فسألهم :

— ما ردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم ؟

— أخذنا مع بريد كذاباً بقتلنا .

وأقبل أهل الكوفة والبصرة يسألهم على :

— وأنتم ما جاء بكم .

— نحن ننصر إخواننا .

فقال على :

— كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر

وقد سرتهم مراحل ، ثم طويتم بحرنا ، هذا والله أمر أبرم بالمدينة .

— ضعوه على ما شئتم ، لاحاجة لنا في هذا الرجل ، ليعتزلنا .

واعتزل الناس في دورهم ، وفي يوم اجتمع الناس في المسجد وكان

الشوارع جالسين فيه ، وخرج عثمان فسكبتوا فكان على رأسهم الطير ، وساد

المسجد سكوت الرموس ، فخطبهم عثمان وأعطاهم الرضا وبكى واستمر يردد :

اللهم إني أتوب إليك ، اللهم إني أتوب إليك ، اللهم إني أتوب إليك ،

إذا دخلت منزلي فادخلوا على ، فوالله لا أحتجب منكم ، ولأعطينكم

الرضا ، ولأزيدنكم على الرضا ، ولأنحن مروان وذويه .

عاد عثمان إلى داره ، وخرج سعد ليزور خاليفة رسول الله ، فرأى

الناس يركب بعضهم بعضاً ثم رأى باب عثمان يفتح ويخرج منه مروان

ويقول :

— شأنت الوجوه إلا من أريد ، ارجعوا إلى منازلكم ، فإن يكن

لأمير المؤمنين حاجة بأحد منكم يرسل إليه وإلا قر في بيته .

فعجب سعد كيف يقول مروان ذلك بعد مقالة عثمان ، وكيف يقبل

عثمان أن يكون سيقه لمروان يسوقه حيث شاء ، بعد كبر السن وصحة

الرسول ؟ يا لمروان إنه يقود عثمان إلى الهلاك .

وانطلق سعد وقد عزم على أن يعذب على مروان .

ثار الناس بعد خطاب مروان ، وبات أهل يثرب يوجسون خيفة ، وما استطاع الناس أن يبرحوا دورهم ، واعتزل عثمان في داره ، وما كان يصلي بالناس ، ووقف على داره أبناء الصحابة يذبحون عنه ، ويمنعون الثوار من الدخول عليه .

ورأى عثمان ثورة الناس الجارحة ، فأرسل إلى علي ، واسكن علياً ساءه تصرف عثمان ، ولعب مروان به فصاح بصوت عال مغضب :
— قل له ما أنا بداخل عليك ولا عائد .

وجاء سعد ودخل على عثمان وغاب عنده مدة طويلة ، وخرج من عنده ، قرأى عند الباب أناساً كثيرين يصيحون يطالبون دمه فاسترجع ، وبانت الدهشة في وجهه ، أبلغت الثورة حد طلب دم خليفة رسول الله ، والتفت حوله فرأى مروان ، فطأطأ رأسه ، وبان الندم في وجهه ، لقد هاجم عثمان بعد خطبة مروان الأخيرة ، وانهى بالانصياع إلى مروان والالتقياد له ، واقترب مروان منه وقال :

— الآن تندم ، أنت أشعرتك .

— أستغفر الله ، لم أكن أظن الناس يحترمون هذه الجراءة ، ولا يطالبون دمه ، وقد دخلت عليه الآن ، فتكلم بكلام لم تحضره أنت ولا أصحابك ، فزع عن كل ما كره منه وأعطى التوبة وقال : لا أتمادى في الهلكة ، إن من تمادى في الجور كان أبعد من الطريق فأنا أتوب وأنزع .
ورأى سعد الجموع الثائرة ، فاستل سيف ، وتأهب للدفاع عن عثمان خليفة المسلمين ، فقال له مروان :

— إن كنت تريد أن تدب عنه فعليك بابن أبي طالب .

فأطرق سعد مفكراً ، فوجد أن علياً وحده هو الذي يستطيع أن يرد هذه الجموع الثائرة لمكانته ، ولحبهم إياه ، فانطلق وقد عهد العزم على محادثة علي . خرج سعد حتى أتى علياً في المسجد وهو بين القبر والمنبر وقال :

— يا أبا الحسن قم فداك أبي وأمي ، جئتك والله بخير ما جاء به
أحد قط إلى أحد ، تصل رحم ابن عمك ، وتأخذ بالفضل عليه ، وتحقق
دمه ، ويرجع الأمر على ما نحب ، قد أعطى خليفتك من نفسه الرضى .
— تقبل الله منك يا أبا اسحاق ، والله ما زلت أذب عنه حتى لاني
لاستحي ، ولكن مروان ومعاوية وعبد الله بن عامر هم صنعوا به
ما ترى ، فإذا نصحته ، وأمرته أن ينحيهم استغشني حتى جاء ما ترى .
— قد تاب .

— أي خير توبته هذه ،

وقام على وانصرف وقتل سعد عائداً إلى داره ، ومكث بها ،
وقد وقال :
— لا أشهد قتله .

وجاءه خبر قتله ، فأطرق حزناً وغمماً : . الذين ضل سعيهم في
الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . .

الفصل الخامس والثلاثون

الاعتزال

((إن الله يحب العبد الغنى الخفى التقي))
حديث شريف

قتل عثمان ، وخشى الناس الثوار فاعتكفوا في دورهم ، واستمرت المدينة تموج بالثوار موجاً ، وأصبحت للأمير لها ، وفكر الناس في مبايعة خليفة لهم ، فانطلق المصريون إلى علي ، ولكنه اختبأ منهم ، وظلوا يبحثون عنه حتى لقوه ، فباعدهم وظل يتبرأ منهم ومن مقالتهم ، وانطلق الكوفيون إلى الزبير ، وأرسلوا إليه رسلاً لمحدثته في أمر البيعة ولكنه باعدهم وتبرأ منهم ، والتمس البصريون طليخة فلقبيهم ولم يقبل بيعتهم . وانقضى اليوم الأول ولم يجد الثوار من يقبل الخلافة ، وبقي عثمان في داره لا يجرؤ أحد على دفعه خشية بطش الثوار به .

وطالعت شمس اليوم الثاني ، فراح الثوار يفكرون فيمن يولونه الخلافة غير هؤلاء الذين رفضوها ، فلم يجدوا من أهل الشورى إلا سعداً ، فبعثوا إليه وفداً يكلمه في ذلك . خرج وفد الثوار وجاءوا سعداً وقالوا له :

— إنك من أهل الشورى فرأينا فيك مجتمع فأقدم نبايعك .

فقال لهم :

— إني وابن عمر نخرجنا منها فلا حاجة لي فيها على حال .

وصمت قليلاً ثم قال :

لا تخلطن خبيثات بطيبة واخلع ثيابك منها واحج عريانا
وانقضى اليوم الثاني ولم يهتد الثوار إلى خليفة ، وبقي عثمان في داره
لم يقبر ، وأهل داره يخشون الخروج لدفنه رهبة من الثوار وبطشهم ،
وتصرم اليوم الثالث كما تصرم سابقاه ، وجاء الزبير إلى بيت عثمان ،
ولما هدا الناس وأرخص الليل سدوله ، خرجوا بعثمان وهم يتلفئون
وجالين خشية أن يفاجئهم الثوار فينكلوا بهم ، حتى إذا بلغوا جدارا ،
دفعوه ووقعوا راجعين مسرعين لا يلبون على شيء ، وهكذا تم دفن
عثمان خليفة المسلمين ، وصهر الرسول ، في هجرة الليل ، وغفلة
من الناس .

تلفت المسلمون حولهم ، فوجدوا فوضى ضاربة أطناها ، ووجدوا
ثوارا يحتلون المدينة ولا أمير عليها ، فانطلق أصحاب الرسول حتى دخلوا
منزل علي ، فقالوا له :

— إن هذا الرجل قد قتل ، ولا بد للناس من إمام ، ولا نجد اليوم
أحدا أحق بهذا الأمر منك ، لا أقدم سابقة ، ولا أقرب من رسول الله
صلى الله عليه وسلم .

— لا تفعلوا ، فإنني أكون وزيراً خير من أن أكون أميراً .

— لا والله ما نحن بفاعلين حتى نبإيعك .

— ففي المسجد ، فإن بيعتي لا تكون خفياً ، ولا تكون إلا عن رضا
المسلمين .

وخرج علي إلى المسجد وبايعه أصحاب الرسول إلا سعداً فإنه
لم يبايعه ، فإنه لم ينس لعلي يوم جاءه قبل مقتل عثمان يسأله أن يكفكف
الناس عن عثمان ورفضه ، ذلك بحجة أنه كثيراً ما نصحه ولكنه كان
يستخشفه .

وبايع الناس لعلي ، وأصبح خليفة للمسلمين ، وابتدأت الفتن تجر بعضهم

بعضاً ، فقد بايع طلحة والزبير ، وبعض نفر من المسلمين وهم يبنون
النفوس بمواتاة الفرصة التي يتقبلون فيها على على ، وينتزعون الأمر منه ،
وكانت عائشة أم المؤمنين قد خرجت للحج وعثمان محصور ، فلقبها رجل
من أخوالها ، وهي في طريقها إلى المدينة فقالت :

— ما وراءك ؟

— قتل عثمان ، واجتمع الناس على على ، والأمر أمر الغوغاء .

— ما أظن ذلك تاماً ردوني .

وعادت راجعة إلى مكة ، وكان طلحة والزبير قد استأذنا علياً في
العمرة فأذن لهما ، وبلغت عائشة مكة ودخلتها فوافاها عبد الله بن عامر
الحضرمي وكان أمير عثمان على مكة ، فقال :

— ما وراءك يا أم المؤمنين ؟

— ردني أن عثمان قتل مظلوماً ، وأن الأمر لا يستقيم ، ولهذا الغوغاء

أمر ، فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الإسلام .

واجتمع طلحة والزبير بعائشة أم المؤمنين ، واتفقوا على المطالبة

بدم عثمان ، فقامت أم المؤمنين تحرض الناس فقالت :

— أيها الناس ، إن هذا حدث عظيم ، وأمر منكراً ، فانهضوا فيه

إلى إخوانكم من أهل البصرة فأنكروه ، فقد كفأكم أهل الشام ما عندهم ،

لعل الله عز وجل يدرك لعثمان وللمسلمين بثأرهم .

وشخصت أم المؤمنين إلى البصرة مع الشاخصين ، وخرج على لقتال

شاق عصا الطاعة ، وابتدأت الحروب بين المسلمين ، فاعتكف سعد في

إبله ، ولم يشأ أن ينضم إلى أحد الفريقين ، فكيف يشترك في حرب

يقتل المسلم أخاه المسلم ، إنه لا يقر أن يهرق المسلمون دماءهم في محاربة

إخوانهم في الدين ، إنه امتنع عن مبايعة على ، ولكنه لا يقر محاربته ، إن

لعاليا فضله ومنزلته ، واستمر معتزلا في إبله ، وجاء ابنه عمر إليه يوما
وقال له :

— الناس يتنازعون الإمارة وأنت هاهنا ؟
فصمت سعد قليلا : فاستأنف ابنه الحديث :
— اخرج يا أبت فإنك أحق بها من المتنازعين .
فقال سعد :

— لا ، ان أخرج أبدا ، إني قد تركت الإمارة ، لا شأن لي فيها .
— ولم يا أبت ؟

— يا بني ، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن
الله يحب العبد الغني الخفي التقى » .

وخرج ابن سعد ، والناس يتطاحنون في سبيل الإمارة ، وبقي سعد
في عزلته ، وجاء هاشم بن أخيه إليه وقال له :

— يا عم ، هاهنا مائة ألف سيف يروك أحق الناس بهذا الأمر
— لو يد من المائة ألف ، سيفا واحدا إذا ضربت به المؤمن
لم يصنع شيئا ، وإذا ضربت به الكافر قطع

الفصل السادس والثلاثون

معاوية في مكة

« كذلك أورتناها قوماً آخرين »

قرآن كريم

دارت عجلة الزمن ، فطويت خالقاً كثيراً في حروب المتقاتلين على
الإمارة وطأحت المتطالحين ، فقتل أحدهم الزبير بن العوام يوم الجمل
وعاد بسيفه إلى علي ، فلما رأى علي السيف ، طأطأ رأسه وقال :
— سيف طالمأ جنى الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتم النصر لعلي يوم الجمل ، ولكنه لم يتم له الأمر ، فهناك في الشام
معاوية بن أبي سفيان يطالب بدم عثمان ، وينأوى علياً ، فسار علي إليه
والتقى الجمعان في صفين ، وكاد جيش علي أن ينتصر ، ورأى عمرو بن العاص
أن أمر أهل العراق قد اشتد ، وخاف في ذلك الهلاك فالتفت إلى
معاوية وقال :

— هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعاً ولا يزيدهم
إلا فرقة ؟

— نعم .

— فرفع المصاحف ثم قدار : ما فيها حكم يبتنا وبينكم : فإن أبي
بعضهم أن يقبلها ، وجدت فيهم من يقول بلى ، ينبغي أن تقبل ، فتسكون

فرقة تقع بينهم ، وإن قالوا بلى نقبل ما فيها ، رفعنا هذا القتال عنا ، وهذه الحرب إلى أجل أو إلى حين .

ورفعت المصاحف ، فأثرت خدعة عمرو في الناس فقالوا :

— نجيب إلى كتاب الله عز وجل ونطيع إليه .

كان سعد معزلاً ، ولما كان يخرج بين الفينة والفينة ليعلم ما تم بين المتقاتلين ، وفي يوم خرج إلى دومة الجندل يتسلم الأخبار ، فلمح فارساً مقبلاً يشير النقع خلفه ، ولما اقترب الفارس تبينه سعد ، فإذا هو ابنه فسأله :

— ما وراءك يا عمر ؟

— قد حكم الناس أبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص ، وقد شهدهم نفر من قريش فاشهدهم ، فإنك صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحد الشورى ، ولم تدخل في شيء كرهته هذه الأمة ، فاحضر فإنك أخق الناس بالخلافة .

سعد لا يفعل ، إلى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
وإنه يكون فئة ، خير الناس فيها الخفي النقي ، والله لا أشهد شيئاً من هذا الأمر أبداً .

وانطلق سعد ، وجاء الحكان إلى دومة الجندل ، وانتظر سعد موافاة ابنه ليخبره ما تم في التحكيم ، وفي يوم رافى عمر أباه وقال له :

— تم الأمر بالمعوية .

— وكيف ؟

— خدع عمرو أبا موسى .

— وكيف تم ذلك ؟

— اتفقا فيما بينهما على أن يخاضعا هذين الرجلين ، ويجعلا الأمر

شورى بين المسلمين ، فاختاروا لأنفسهم من أحبوا ، فقام أبو موسى وقال :
 و إنما قد نظرنا في أمر هذه الأمة ، فلم نر أصليح لأمرها ، ولا ألم لشعبها
 من أمر قد أجمع رأي ورأي عمرو عليه ، وهو أن نخلع علياً ومعاوية ،
 وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر ، فبولوا منهم من أحبوا عليهم ، وإلى
 قد خلعت علياً ومعاوية ، فاستقبلوا أمرهم ، وولوا عليكم من رأيتموه
 لهذا الأمر أهلاً ، ثم تنحى وأقبل عمرو بن العاص فقام مقامه وقال :
 و إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ،
 وأثبت صاحبي معاوية ، فإنه ولي عثمان بن عفان رضى الله عنه ،
 والطلب بدمه ، وأحق الناس بمقامه ، فقال أبو موسى : و مالك ،
 لا وفقتك الله ، غدرت ولجرت ، إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه
 يلهث ، أو تتركه يلهث .

قال عمرو : و إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً .

لم يسفر التحكيم عن نتيجة حاسمة ، فما توقفت على عن القتال ، ولا
 أصبح معاوية خليفة المسلمين لا يزارعه منازع ، بل استمر القتال بين
 المسلمين ، فاتفق ثلاثة من الرجال على قتل علي ومعاوية وعمرو ،
 فتعاهدوا وتواثقوا بالله لا يتكص رجل منهم عن صاحبه الذي توجه
 إليه ، حتى يقتله أو يموت دونه ، فأخذوا أسيافهم واتعدوا لسبع عشرة
 تحلو من رمضان أن يشب كل واحد منهم على صاحبه الذي توجه إليه ،
 وتوجه كل رجل منهم إلى الصر الذي فيه صاحبه الذي يطلب . ووافى
 الأجل ، فصرب كل رجلهم علياً بالسيف فقتله ، أما معاوية وعمرو فقد
 نجا من القتل .

وبويع الحسن بن علي خليفة المسلمين ، ولكن لم يلبث أن تنازل
 معاوية فأصبح أمير المؤمنين بلا منازع ، واستتب له الأمر ، وخرج

للحج فر على المدينة : ودخل بيت سعد ودعا للحج معه . وكان سعد آخر من بقى من أهل الشورى ، فخرج مع معاوية معزاً مكرماً ، ولما بلغا مكة ، طافا سوياً ، وانتهت مراسيم الحج ، فانصرف معاوية إلى دار الندوة وسعد برفقته . وجلس معاوية على سرير . وأجلس سعدا عليه معه . وأخذنا بأطراف الحديث ، فراحا يتذاكران وينذاكران ما مضى من أحداث . وغر معاوية إقبال سعد عليه فوقع في علي وشرع في سبه . فبان الغضب في وجه سعد وقام من على السرير وقال لمعاوية بصوت فيه حدة ، وفيه غضب :

— أجاستنى معك على سريرك ثم شرعت في سب علي ، والله لأن يكون في خصلة واحدة من خصال كانت نعلي أحب إلي من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس . والله لأن أكون صبراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لي من الولد ما نعلي . أحب إلي من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس . والله لأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في ما قاله يوم خيبر : « لا أعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحب الله ورسوله » . ليس بهرار يفتح الله على يديه ، أحب إلي من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس . والله لأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في ما قاله في غزوة تبوك : « ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » . أحب إلي من أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس ، وأيم الله لا دخلت لك داراً ما بقيت .

وخرج سعد من دار الندوة مغضباً .

الفصل السابع والثلاثون

الفراق

« من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله
عليه ، منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر
وما بدلوا تبديلاً »
قرآن كريم

السلخت ثمانون سنة من عمر سعد ، شهد خلالها مولد الإسلام
ثم نموه ، حتى إذا ما هم ليقف على قدميه أحاط به أعداؤه من كل جانب
فاضطهدوا المسلمين ، فاضطهد سعد وعذبه ، وطرد وشرده ، ولم يكن
احتمل محاربا ، واثقا من أن النصر الأخير للإسلام والمسلمين ، واستند
سعد الإسلام على الرغم من السيوف المتأرجحة فوق الرقاب ثم فراح
المسلمون يذبحون عن دينهم ، ويدافعون عن كياناتهم ، تخاض سعد في سبيله
معارك هائلة يشيب من هولها الوليد ، حتى توطدت دعائمه ، ورفعت
أعلامه ، ورفرفت على العالمين ، قفرت عين سعد ، وأطمانت نفسه ،
وأخذ الإسلام في الإشراق ، وأخذ سعد في الغروب ، فسقط أخيراً
فريسة للضعف والمرض ، فإزم داره ، وأخذت صور الماضي الحبيب
تتأمل أمام عينيه ، وراحت ذاكرته تمتد بها دون ترتيب أو نظام ، وكثيراً
ما كانت تلك الصور تتداخل بعضها في بعض حتى لتخرج وليختلط عليه
الأمر ، وكثيراً ما كان خياله يقفز به من مكة إلى المدينة إلى العراق ؛
رأى نفسه على راحلته يخرج مع النبي للحج ، فيسقط مريضاً عقب إتمام

مناسكة ، حتى يشرف على الهلال ، فيدخل محمد الحبيب عليه في مرضه ،
ويدعو له : اللهم امض لأصحابي هجرتهم ، ولا تردهم على أعقابهم ،
ولكن البائس سعد بن خولة يرى له رسول الله إن مات بمكة ، ثم
يقفز به خياله إلى المدينة فيرى نفسه يحفر مع الناس الخندق ، ويحمل
التراب على عاتقه فتعترضهم كدية فيخبرون النبي صلى الله عليه وسلم
خبرها فيضربها بمعوله فتفتت ، وتبرق منها شرارة ، فيقول النبي : وضربت
ضربتي الأولى فبرق الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن
كسرى كأن أبواب السكاب ، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها ، إنه
ليجي هذا الكلام الآن أكثر من أي وقت مضى ، لقد كان المقدور أنشد
يشير إليه ، أن هذا هو قاهر الفرس ومحقق نبوءة نبيه ، وكر به خياله
راجعا إلى أول يوم سمع فيه بالاسلام فرأى نفسه حدثا يرى النبل في مكة
وأبا بكر يقد إليه ليلبعه بها ظهور دين جديد يدعو إلى الإخاء والمساواة
وعبادة إله واحد لا شريك له ، وما أن تذكر النبل حتى قفز به خياله
إلى يوم أحد ، يوم وقف بضع نفر من المسلمين يذب عن النبي فتطارت
سهامه حتى بلغ مارماه ألف سهم ، وكان النبي يقول له : أرم أيها الغلام
الحزور ، فذاك أبي وأمي ، وتواجت الصور في رأسه ، وبلغ منه الجهد
فأغنى أغفامة خفيفة ، وما لبث أن فتح عينيه ، فوجد رأسه في حجر
ابنه مصعب فحاول أن يتنسم ، ولكن الابتسامة ماتت على شفقيه قبل
أن تولد ، فقد اشتد به الوجع ، ورأى مصعب ذبول أبيه ، وما يقاسيه
من ألم ، فلم يتمالك نفسه ، فقامت عيناه بالدمع ، ثم أخذت الدموع
تساقط على خديه ، فلما رأى سعد ذلك ، قال بصوت ضعيف :

— ما يبكيك يا بني ؟ والله إن الله لا يعذبني أبدا ، ولاني من أهل
الجنة ، وأقفل عينيه قليلا يحكم فتجهم السوفال لمن حوله :

— ليتوني بتلك الجنية الصوف التي قابلت بها المشركين يوم بدر ،
فما خبايتها إلا لهذا اليوم .

سجىء بالجنية وتناولها فضمها إلى صدره ، وأسبل عينيه ، وأخذت
مشاهد بدر تمر بخيلته ، فارتسم على وجهه هدوء واطمئنان ، ومرت
مدة ثم فتح عينيه وقال لمن حوله :
— كنتوني فيها .

وانبهرت أنفاسه ، وخرج نفس ما عاد غيره ، فتمضى سبعة نحبه في قصره
بالعميق ، على مسيرة عشرة أميال من المدينة ، ولما بلغ أهل المدينة خبر
موته ، انطلق الرجال إلى داره وجهازه ، وكفنوه في جبهته التي خباها
يوم بدر لهذا اليوم ثم حملوه على الرقاب حتى بلغوا المدينة ، فلما دخلوا
به المسجد ، طالب أزواج النبي أن يدخل به إلى حجرهن وأن يترك بها
ليصاين عليه ، وتمت الصلاة ، فخرج به الناس من باب الجنائز ، وانطلقوا
إلى البقيع ليقيموا آخر أهل الشورى ، ودعهم جار ، وجزئهم عميق .

للؤلف تحت الطبع

١- همزات الشياطين

مصدر يبحث واف عن

الرواية والأقصوصة

٢- أبناء أبي بكر